حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد السابع ـ شوال ١٤٣٨هـ / تموز ٢٠١٧م

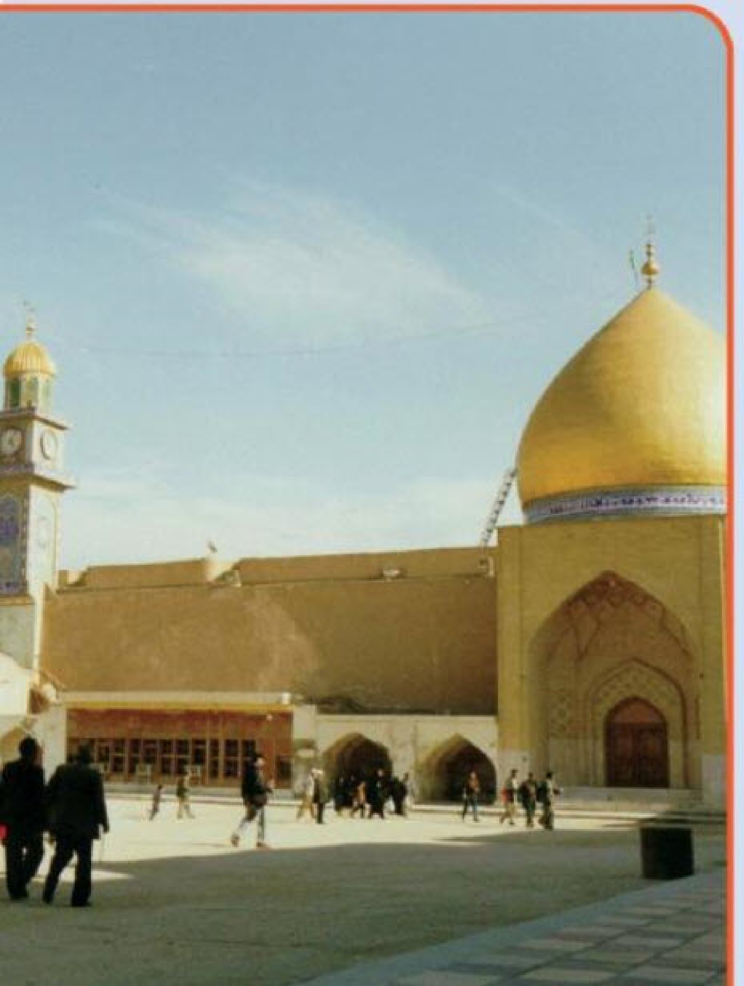

٧

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الإمام علي (عليه السلام)
واختياره للكوفة كمركز لخلافته

د. إيمان سالم الخفاجي
العتبة الكاظمية المقدّسة

القرآن الكريم وسيرة الرّسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)

مَنَّ الله تعالى علينا نحن المسلمين بالنّبي (صلى الله عليه وآله) المرسل إلينا من أنفسنا وهي نعمة لا تقدر ومنحة عظيمة جليلة ليخرجنا من الظّلمات إلى النّور، ويتفضل علينا بهدايتنا إلى الصّراط المستقيم، وسوقنا إلى أقصى درجات الكمال الّذي فيه ينبع ديننا الكامل ولنوحد الله في العبادة، ويقوّم الأخلاق الدّينية والاجتماعية الّتي تتفرع على تلك الدّعوة على ذكره وشكره قال تعالى: (**لئن شكرتم لأزيدنكم**)[1]، وقد وردت أحاديث كثيرة عن الرّسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وعن أهل بيته (عليهم السلام) في الذّكر وفضائله وأنواعه وأوقاته وأماكنه وأدواته، وجاء في بعض الكتب المنزلة من الله على الأنبياء (عليهم السلام) «وإنّ من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»[2]، وإنّ حب الله يقطع المحب عن غيره من الموجودات وهذا ما يسمى بالانقطاع عند أهل المعرفة، وتموت النّفس الأمارة بالسّوء وتبدأ الحياة العقلية للإنسان وفي أعلى درجاتها تستضيء بصيرة الإنسان بنور لقاء الله، وإنّ الله سبحانه يمكن رؤيته بالرّؤية العقلية والقلبية وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث قال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين، متكلم لا بروية، ومريد بلا همة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالجفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرّقة تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته»[3].

إنّ ما أنجبت الأمة الإسلامية من علماء في كافة الفنون وفي كافة العصور هو نتيجة جهد ومشقة وهذا ما يظهر له أثر من الكتب المبثوثة والّتي تزخر المكتبات في أرجاء المعمورة ولعل أبرز ما تحدث عند وما مدحه المسلمون شخصية طالما كان لها أثر في حياة المسلمين تلك الشّخصية الّتي ما فتئ أحد يذكرها ويسرح خياله في ذلك العصر كيف امتاز عن بقية أقرانه، تلك الشّخصية الإسلامية الّتي يكشفها من لا غبار على علمه تلك الشّخصية «علي بن أبي طالب (عليه السلام)» بقربه من الرّسول (صلى الله عليه وآله) فالكلام الّذي يصدره أمير المؤمنين (عليه السلام) هو موافق لما قاله النّبي (صلى الله عليه وآله) وما قاله القرآن الكريم.

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال النّبي (صلى الله عليه وآله) لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»[4]، وهذه علامة مميزة لعلي (عليه السلام) كي يكون من الّذين قال عنهم القرآن الكريم (**إنما أنت منذر ولكلّ قوم هاد**)[5]، وعن فاطمة سلام الله عليها: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لها: «أما ترضين إنّي زوجتك أوّل المسلمين إسلاماً، وأعظمهم علماً فإنّك سيدة نساء العالمين كما سادت مريم نساء قومها»[6]، وعن زينب ابنة علي (عليها السلام) عن فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) «أما إنّك يا علي وشيعتك في الجنة»[7]، وعن سهل بن سعد الأنصاري قال: سألت فاطمة (عليها السلام) بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الأئمّة فقالت: «كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول لعلي (عليه السلام): يا علي! أنت الإمام والخليفة بعدي، وأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضيت فابنك الحسن أولى بالمؤمنين من

(١) سورة إبراهيم: الآية٧.
(٢) مستدرك الوسائل: ح٥، ص٢٩٨.
(٣) بحار الأنوار: ح٤، ص٥٣.

(٤) صحيح البخاري، ح٢، ص١٨٥ باب مناقب علي بن أبي طالب الهاشمي(عليه السلام).
(٥) سورة الرّعد: الآية ٧.
(٦) أسنى المطالب، العلامة الوصابي اليمني، مخطوط، أعلام الهداية، فاطمة الزّهراء(عليها السلام) سيدة النّساء، مطبعة المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ط٣، ح٣.
(٧) دلائل الإمامة: ٢ و٣ ومثله في ينابيع المودة ص٢٥٧.

أنفسهم، فإذا مضى الحسن فابنك الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم.. إلى آخر الحديث»[١].

أهل البيت وخيارات المواجهة

المدرسة الفكرية والفقهية لأهل البيت (عليهم السلام) تشكل رؤية شاملة للإسلام، وبرنامجاً كاملاً لتطبيقه، ولا شك أنّهم اهتموا ببث ونشر ما يعتقدون أنّه الفهم الصّحيح للدين، وأن يأخذ طريقه للتنفيذ والتّجسيد في حياة المسلمين ولوجود النّص النّبوي على مرجعيتهم كما في حديث الثّقلين وحديث سفينة نوح وحديث الغدير وأمثالها، وباعتبارهم الأكفأ والأعرف بشريعة الله تعالى، فإنّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) يرون لأنفسهم أحقية الإمامة والقيادة للأمة لكن ذلك لم يدفع أياً منهم للصراع والمغالبة على الحكم والسّلطة، ولا للسعي من أجل الفرض والهيمنة على الجمهور.

الإمام علي (عليه السلام) والخلافة

بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومبايعة أبي بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة، كان هناك من يستحث الإمام علياً للتصدي للخلافة كما ينقل ابن الأثير في تاريخه.. قال: «فقالت الأنصار أو بعض الأنصار، لا نبايع إلا علياً.. وقال الزّبير: لا أغمد سيفاً حتّى يبايع علي.. أقبل أبو سفيان وهو يقول: إنّي لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم، ثمّ قال لعلي: ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملانها عليه خيلاً ورجالاً، فزجره علي وقال: والله إنّك ما أردت بهذا إلا الفتنة، وأنّك والله طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك»[٢]، ونحوه ورد في تاريخ الطّبري[٣].

وينقل ابن قتيبة في كتابه «الإمامة والسّياسة» إنّ العبّاس بن عبد المطلب قال لعلي ابسط يدك أبايعك، فيقال: عمّ رسول الله بايع ابن عم رسول الله[٤] ويبايعك أهل بيتك، فإنّ هذا الأمر إذا كان لم يقل[٥]، لكن علياً رفض ذلك حفاظاً على وحدة الأمة ومراعاة لخطورة الظّروف.

ومرة أخرى عرضت الخلافة على الإمام علي (عليه السلام) بعد مقتل الخليفة الثّاني عمر بن الخطاب حيث كان واحداً من ستة عينهم الخليفة عمر ليختاروا أحدهم خليفة المسلمين فعرض عبد الرّحمن بن عوف على الإمام علي (عليه السلام) بمحضر المسلمين في المسجد قائلاً: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال الأمير علي: اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي[٦]، لقد فوت على نفسه الخلافة آنذاك برفضه الالتزام بشرط لا يقتنع به، لأنّه لم يكن حريصاً على السّلطة بمقدار حرصه على مبادئه.

وقرأت مؤخراً تعليقاً جميلاً على هذه الحادثة التّاريخية يقول فيه: «ولقد كان الجيش الأوّل من المسلمين رضوان الله عليهم يريد أن يجعل من تجربته السّياسية والتّنظيمية في إدارة الدّولة، جزءاً من الشّريعة، لولا تصدي الإمام علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه» لمثل هذه المحاولة، وكلفه هذا التّصدي التّضحية بمنصب الخلافة، في أوّل عرض لتوليها، عندما رفض الالتزام بتجربة الشّيخين بعد كتاب الله وسنة نبيه، إذ كان تقييمه لهذه التّجربة لا يعدو كونها اجتهاداً بشرياً، يسع من بعدهم، ويتسع لآفاق المستقبل وبتضحيته هذه أوقف الإمام «كرم الله وجهه» زحف الثّابت من الدّين إلى حدود تلك المساحات»[٧].

ويتحدث المؤرخون عن تمنع علي وعزوفه عن الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان، لولا إلحاح الجمهور عليه، قال ابن كثير: «وقد امتنع علي من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتّى تكرر قولهم له، وفر منهم إلى حائط بني عمرو بن مبدول، وأغلق بابه، فجاء النّاس فطرقوا الباب وولجوا عليه، وجاؤوا معهم بطلحة والزّبير فقالوا له: إنّ هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير، ولم يزالوا به حتّى أجاب»[٨].

وحينما تصدى للخلافة، واضطر لمواجهة فتن المناوئين في حرب الجمل وصفين والنّهروان حفاظاً على الأمن والاستقرار ووحدة الأمة، كانت تلك المواجهات مؤلمة له، وثقيلة على نفسه، ولولا كونه في موقع المسؤولية، لكان أبعد عن تلك الصّراعات مع الطّامحين للمواقع والمناصب، الّتي لا حرص له عليها، ولا رغبة له فيها، يقول (عليه السلام): «أما والّذي فلق الحبة، وبرأ النّسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود النّاصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[٩].

(١) يراجع كفاية الأثير: ١٩٣- ٢٠٠، أعلام الهداية ص٢٠٦.

(٢) ابن الأثير الكامل في التّاريخ، ج٢، ص١٠، ١١، مؤسسة التّاريخ العربي، بيروت، ١٩٨٩م.

(٣) الطّبري: محمّد بن جرير، تاريخ الطّبري، ج٢، ص٤٤٩، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

(٤) مجلة الرّسول الأعظم: العدد ١٠ محرم ١٤٢٩هـ ص٤٥.

(٥) ابن قتيبة الدّينوري: عبد الله بن مسلم، الإمامة والسّياسة، ج١، ص١٢، مؤسسة الحلبي، القاهرة.

(٦) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ، البداية والنّهاية، ج٧، ص١٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

(٧) الشّطي: الدّكتور إسماعيل: الإسلام الّذي نريد، مقال في جريدة الشّرق الأوسط، ٧، ٦، ١٩٩٨م.

(٨) ابن كثير: أبو الفداء، البداية والنّهارية، ج٧، ص٢١٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

(٩) الموسوي: الشّريف الرّضي، نهج البلاغة، خطبة رقم ٣.

الإمام علي يختار الكوفة مركزاً لخلافته

المعلوم -تاريخياً- من أنّ الإمام علياً (عليه السلام) بعد أن فرغ من حرب الجمل، انتقل بحكومته من المدينة إلى الكوفة واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه، والكوفة يومئذ مركز الثّقل في المجتمع الإسلامي النّاشئ، ولوجود الأتباع والقواعد الشّعبية الموالية لحكم الإمام (عليه السلام) روحياً وعاطفياً، وإن كانت هذه القواعد لم تع رسالة الإمام (عليه السلام) وعياً حقيقياً كاملاً، وكانت المدينة المنورة تمثل مركز القيادة السّياسية والرّوحية للأمة الإسلامية إذ كان فيها أغلب المهاجرين والأنصار، والسّؤال هنا لماذا تغيير مركز الخلافة؟ وخصوصاً إنّ المدينة كانت تتمتع بقدسية خاصة في نفوس المسلمين، وقد استطاعت أن تثبت عملياً صلاحيتها لذلك ما يقرب من خمسة وثلاثين سنة، فهل كان هذا التّغيير أمراً عفوياً من الإمام (عليه السلام) أم أنّه أمر مدروس؟ في نطاق خطة ذات أبعاد إستراتيجية واعتبارات عسكرية وقيادية؟

ويمكن لنا أن نتعرف على ملامح هذه الخطة، من ملاحظة الظّروف والأحداث القاسية الّتي واجهت الإمام (عليه السلام)، فقد كان يواجه تحدياً سافراً من تلك الفئات الّتي كانت تحلم بالحصول على امتيازات أكبر على حساب الدّين والأمة وعلى حساب الشّرعية، فبعد معركة الجمل وبعد أن تفرق المتمردون ورجعت عائشة إلى بيتها، وجدد النّاس بيعتهم له (عليه السلام) في البصرة واستتب الأمن، ولاها ابن عمّه عبد الله بن العبّاس، وخرج منها بعد شهر أو شهرين من انتهاء المعركة متجهاً نحو الكوفة ليتخذها مقراً له[1]، لأنّ الإمام (عليه السلام) قبل وقوع العصيان المسلح الّذي قام به الحلف الثّلاثي «طلحة، الزّبير، عائشة» كان يعد العدة لإرسال جيش قوي إلى الشّام يتولى قيادته بنفسه لإقصاء معاوية عنه، مما دعاه إلى أن يرجئ أمر معاوية ريثما يساوي حسابه مع هذا الحلف، ويفوت عليهم الفرصة الّتي كانوا يحلمون بها، وبالطّبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعداداً كاملاً ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز، فرصة لإنجاز خطته فانقاد إليه أهل الشّام، وأظهروا غضبهم لمقتل عثمان وحرصهم على الطّلب بدمه من علي وأصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأنى ويتخذ التّدابير الكافية لكلّ الاحتمالات، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل إلى زعمائه وقادة الجيوش من يمنيهم ويغيرهم حتّى انقاد إليه جماعة منهم، كلّ ذلك لم يغب عن علي (عليه السلام) وقد وضع في حسابه فآثر أن يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة ليكون في مركز القوة عسكرياً وسياسياً[2].

(١) سيرة الأئمّة، الحسني ج٢، ص٤٦٤.

(٢) راجع سيرة الأئمّة: الحسني، ص ك ٤٦٥- ٤٦٦.

وواضح من اختيار الإمام (عليه السلام) أنّ المدينة لا تتوفر فيها عوامل النّجاح العسكري والسّياسي إذا ما أخذ حجم التّحدي بنظر الاعتبار، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع أن نجعل وضع المدينة في تقييم قدرتها على تحمل المواجهة في الأمور التّالية[3]:

أوّلاً: إنّ المدينة لم تكن تتوفر فيها كثافة سكانية كافية تستطيع أن تتحمل أعباء المواجهة للتحديات الّتي تنتظر هذا الحكم الجديد إذا ما أخذ حجم هذا التّحدي بعين الاعتبار، فلقد كانت تلوح في الأفق رايات العصيان والتّمرد على الشّريعة، فلقد استغل أهل الأطماع فئات كبيرة من النّاس وضللوها بالشّبهات واستغلوا فيها بساطتها وعدم نضجها الرّسالي لأنّها منذ البداية لم تتح لها فرصة التّعرف على الإسلام الصّحيح، وإنما عاشت الإسلام المتمثل بالسّقيفة وما أفرزته من إسلام منحرف ربت وأنشأت عليه وكلنا يعرف أنّ الإسلام الأموي ما هو إلا إسلام أطماع ومآرب ولا يمكن أن يقاس بأصالة إسلام الإمام علي (عليه السلام) وعمقه ووعيه للرسالة.

وإذا كانت كلّ هذه الفئات لم تتفاعل مع الإسلام الحقيقي تفاعلاً يسمح لها بالرّؤية الصّحيحة لأنّها لم تعرف إلا الإسلام الأموي ولاسيّما بلاد الشّام الّتي افتتحها يزيد ومعاوية بن سفيان عسكرياً في عهد أبي بكر، وظلت تعيش في ظل حكمهم باستمرار فمن الطّبيعي أن لا تتورع عن مناهضة الشّرعية والتّمرد عليها.

ومن أين لمدينة أن تؤمن لعلي (عليه السلام) الجيش الّذي يقدر به على المواجهة والاحتفاظ بالموقع فضلاً عن إنزال الضّربة القاصمة والنّصر؟ وبديهي أنّ الاستعانة بالأعراب حول المدينة، إن لم تكن مضرة فلا أقل من أنّها سوف لا تكون كافية لتحقيق كامل الأهداف وبشكل مرضي ودقيق.

أمّا الاعتماد على النّجدات من سائر الأقطار الأخرى كالعراق وفارس مثلاً، فلربما يكون من السّهل جداً على أعداء علي (عليه السلام) عرقلة ومنع وصول من يريد الوصول إليه منهم بشكل طبيعي وسليم.

ثانياً: لا تتوفر في المدينة الموارد الاقتصادية الضّخمة الّتي تستطيع تأمين احتياجات الجيش الذي يُعد بعشرات الألوف، لأنّها أرض صحراوية قاحلة، ليس بها زرع ولا ضرع وهي بعيدة عن مناطق التّموين.

ثالثاً: إنّ المدينة لم تكن شديدة الولاء للشرعية المتمثلة بعلي (عليه السلام) حيث مركز ثقل الأمويين ومحبيهم من التّيميين،

(٣) راجع: مجلة الحكمة، إستراتيجية الإمام، للعاملي ص٣٣.

الزّبيريين، ومن ينتمي إليهم من أهل الأطماع وبالتّالي كلّ من وترهم الإسلام على يد الإمام علي (عليه السلام).. ومعنى اعتماد المدينة كقاعدة للخلافة وعاصمة لها هو أن تكون الأسرار العسكرية متوفرة لدى الجهة المناوئة، وأن تكون جبهة الإمام (عليه السلام) أمام تحدي الانهيار من الدّاخل وعرضة للأعمال الخيانية لصالح النّاكثين والقاسطين، وذلك لوجود أعوانهم ومحبيهم بين ظهراني السّلطة الحاكمة الّتي يستحيل أن تقدم على أي إجراء ضد أي شخص مادام الشّخص لم يثبت أي اتهام ضده، حتّى تثبت إدانته بالطّرق الشّرعية.

رابعاً: إنّ الجيل الجديد الّذي تربى في المدينة لم يكن قد اعتاد الحياة الصّعبة الّتي تتطلبها الحروب الطّويلة الطّاحنة الّتي خاضها الإمام علي (عليه السلام) لأنّ شباب المدينة كانوا قد اعتادوا حياة الرّخاء والدّعة، لأنّهم صاروا يعيشون على العطاءات السّخية الّتي كان يغدقها عليهم خلفاء الّذين سبقوا علياً (عليه السلام) حتّى أصبح من الصّعب عليهم التّخلص من أجواء الرّفاه الّتي يعيشونها والتّضحية بأنفسهم للمصاعب والمشاق الّتي تتطلبها الحروب.

خامساً: لقد كان الإسلام جديداً على العراق، وكانت العادات القبلية والجاهلية، لا تزال تتحكم في روابطه وعلائقه الاجتماعية وكانت الحروب فيه محكومة لزعماء القبائل عموماً، لا للإيمان والعقيدة، وكانت المدنية أبعد عن ذلك ولو بشكل محدود، فكان إغواء أهل العراق من قبل معاوية أقرب احتمالاً وأسهل منالاً، وإذا صار العراق مع معاوية فإنّ وضع المدينة العسكري والاقتصادي سوف يصير حرجاً جداً، ولهذا فلا بد من تدارك الأمر وحفظ العراق أوّلاً، ثمّ استغلال روح التّنافس الّتي كانت قائمة بين القطرين العراق والشّام، وحتّى الرّوح القبلية أيضاً وتوظيفها في صالح الإسلام والأمة بدلاً من أن يستغلها معاوية في غير هذا السّبيل.

وهكذا نجد أنّ المدينة لا تستطيع في هذه الظّروف بالذّات أن تكون عاصمة للخلافة، ومنطلقاً لتحركاتها بحرية، وإنما نجد الكوفة على الضّد، فهي بالإضافة إلى قربها من الشّام والبصرة، وموقعها الوسط في قلب العالم الإسلامي، مضافاً إليها المميزات التّالية:

١- امتلاكها للطاقات البشرية الّتي تمكنها من مواجهة التّحدي مهما كان كبيراً.

٢- قدرتها الاقتصادية على التّموين المستمر للجيوش الّتي سوف تواجه الحرب، لما تملكه هي والمناطق القريبة إليها من ثروات زراعية وموقع تجاري حيوي في المنطقة سواء بالنّسبة للفرس والعرب على حد سواء.

٣- ضآلة قدرة الأخطبوط الأموي، والتّيمي، والزّبيري، ومن وترهم الإسلام على يد علي (عليه السلام) على التّحرك والمناورة فيها.

٤- لم يكن أهل الكوفة قد تعودوا على لذائذ الحياة وزبارجها، وكان يسهل عليهم التّضحية وخوض غمار الحروب وتحمل الصّعاب، ولهذه الأسباب جميعاً، جاء اختيار الإمام (عليه السلام) للكوفة، وذلك لاعتبارات إستراتيجية وعسكرية فرضت عليه ذلك ولم يكن نقل العاصمة ضرباً من العفوية والارتجال[1].

رفض الإمام علي (عليه السلام) أنصاف الحلول:

والآن نناقش رفض الإمام (عليه السلام) للمساومات، هل كان عناداً؟ بقيت ظاهرة مهمة في حياة الإمام (عليه السلام) عندما كان حاكماً متصرفاً ومصرفاً لشؤون المسلمين نود مناقشتها وإلقاء الضّوء عليها، ألا وهي إصرار الإمام (عليه السلام) وتأكيده الواعي منذ أن مارس الحكم إلى أن خر صريعاً، على رفض كلّ الصّيغ وأنصاف الحلول الّتي واجهته في تصفية الانحراف، ولم يفكر مطلقاً بمساومة الانحراف ومهادنته على حساب الأمة بأي شكل من الأشكال، هذه الظّاهرة من حياة الإمام (عليه السلام) السّياسية -رفض أنصاف الحلول أو قبول المساومات- استرعت انتباه وأقلام أغلب المؤرخين، قديماً وحديثاً وقد جاءت تحليلاتهم وكتاباتهم فجة بعيدة عن واقع التّاريخ وعن فهم صحيح لحقيقة موقف الإمام (عليه السلام).

أمّا الإمام علي (عليه السلام) فقد كان حريصاً كلّ الحرص في معالجة مشاكل عصره، وعلى إعطاء العناوين الأولية الأصيلة للصيغة الإسلامية للحياة، والوقوف على التّكليف الواقعي الأوّلي كما يسميه الأصوليون دون أن يتجاوزها إلى ضرورات استثنائية تساومية تفرضها طبيعة الملابسات والظّروف الآنية العاجلة، وسوف نناقش هذه الظّاهرة، وكالآتي:

١- المستوى السّياسي.

٢- المستوى الفقهي[2].

الدّوافع والأسباب:

١- **المستوى السّياسي:** وعلى الصّعيد السّياسي، نرى أنّ هناك أشخاصاً عاصروا الإمام (عليه السلام) وكان رأيهم في الإمام (عليه السلام) ومعالجته لمسائل الحكم وإصرارهم على استبعاد أو

(١) مجلة الحكمة، العدد الرّابع، السّنة ١٤٠٠هـ العاملي: مقالة إستراتيجية الكوفة في خلافة الإمام علي(عليه السلام)، ص٢٩- ٣٠.

(٢) ينظر في هذا البحث على ما جاء في محاضرة السّيد الشّهيد الصّدر على طلبته في النّجف الأشرف.

رفض كلّ أشكال المساومات وأنصاف الحلول لوناً من ألوان العناد، وهو بالتّالي يعقد الموقف ويثير الصّعاب في دولته، ومعناه ترسيخ تلك المشاكل، بالنّهاية عجز الإمام (عليه السلام) عن مواجهة حلها وسوف تشغله عن مهامه الرّئيسية في إدارة الحكم والمضي بتجربته إلى حيث يريد، وخصوصاً إلى أنّ الإصرار والإلحاح على التّمسك بالمواقف المبدئية سيجعل القضية في طريق مسدود، ولا بأس أن تعتبر كلا الطّرفين المتنازعين إنّ هذا الأمر تنازلاً مرحلياً من قبله ليخطط على ضوئه للمرحلة المقبلة من المفاوضات مثلاً[١].

وقد جاءه المغيرة بن شعبة مقترحاً إبقاء معاوية والياً على الشّام ريثما تستتب الأمور وبعد ذلك سوف لا يبايع، وبالإمكان استبداله وتغييره بعد أن تتم البيعة في كلّ أطراف الدّولة للإمام (عليه السلام).

ونفس القول قاله جرير بن عبد الله للإمام (عليه السلام) طالباً منه أن يوسطه للأمر «ابعثني يا أمير المؤمنين إلى معاوية فآتيه فادعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك»[٢]، ولكن الإمام (عليه السلام) رفض عرض جرير بن عبد الله ورد عليه قائلاً: «اذهب إلى معاوية بكتابي فإن دخل في ما دخل فيه المسلمون وإلاّ فانبذ إليه وأعلمه إنّي لا أرضى به أميراً وإنّ العامة لا ترضى به خليفة»[٣]، أمّا معاوية فيزور جرير بمنزله مساوماً إيّاه بقوله يا جرير إنّي قد رأيت رأياً، قال هاته، قال: اكتب على صاحبك «علي» يجعل لي الشّام ومصر جابة فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة عن عنقي وأسلم له هذا الأمر، واكتب إليه الخلافة.

مضمون رسالة جرير للإمام علي (عليه السلام):

ويكتب جرير ناقلاً مضمون الرّسالة للإمام (عليه السلام) ويجيبه الإمام (عليه السلام): «أمّا بعد فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما يحب، وأراد أن يريثك حتّى يذوق الشّام وأنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي أن استعمل معاوية على الشّام، وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني اتخذ المضلين عضداً، فإن بايعك الرّجل، وإلا فاقبل».

فالإمام (عليه السلام) في جواب هذا الشّخص رفض كلّ هذه المساومات وأنصاف الحلول، واستمر في خطه السّياسي الرّافض، مؤكداً سياسته في رفض هذه التّنازلات بقوله (عليه السلام): ولكني آسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً والصّالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإنّ منهم الّذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإنّ منهم من لم يسلم إلا بعد أن رضخت له على الإسلام الرّضائخ[٤]، وقال بصدد الأموال المغصوبة وردها إلى بيت المال: وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإنّ الحق لا يبطله شيء، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق[٥].

ومن هنا بالذّات، جاءت أقوال بعض المعاصرين، ويردده عندنا بعض المؤرخين والكتاب بأنّ الإمام (عليه السلام) كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً أكيداً ونصراً محققاً من النّاحية السّياسية على أعدائه لو قبل أنصاف الحلول ومارس هذا اللون من المساومات ولو بشكل مؤقت.

٢- **المستوى الفقهي**: ونتناوله من خلال مفهوم فقهي شائع يدعى «بقانون التّزاحم» أو ما يسمى في البحوث السّنية «بالاستحسان»، ويعنون به أنّ الواجب الأهم إذا توقف على مقدمة محرمة لا يجوز تركه بحجة حرمة المقدمة بل يجب المحافظة على الواجب الأهم فمثلاً عندما يتوقف إنقاذ إنسان من الغرق على اجتياز أرض لا يرضى صاحبها باجتيازها ففي هذه الحالة يجيز لنا الشّارع المقدس اجتياز الأرض حتّى ولو بدون رضا المالك، وتسقط حرمة هذه الملكية لأنّ عملية الإنقاذ أهم من المقدمة المحرمة وهي اجتياز الأرض دون رضا المالك وكذلك إذا تمترس الكفار المحاربون أثناء الحرب بالمسلمين الأسرى واضعين إيّاهم أماهم ليتقوا هجوم المسلمين ولم يكن للمسلمين سبيل بالوصول إلى العدو إلا باختراق المسلمين الأسرى وبسفك دمائهم فيكون جائزاً سفك دمائهم إذا كانوا يشكلون عقبة في انتشار الرّسالة الإسلامية وبهذا المعنى كتب الشّهيد الأوّل في اللمعة الدّمشقية يقول: وهكذا يجوز قتل التّرس ممن لا يقتل، ولو تمترسوا بالمسلمين كف ما أمكن ومع التّعذر فلا قود ولا دية[٦]، وكذلك عندما كان الرّسول (صلى الله عليه وآله) في بعض غزواته مضطراً إلى الخروج من المدينة عن طريق معين تعترضه مزارع مملوكة لأصحابها وكان الجيش بطبيعة مروره يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزارع مما دعا أصحابها إلى أن يطالبوا الرّسول (صلى الله عليه وآله) بالتّعويض عما أصابهم من ضرر فلم يجبهم الرّسول (صلى الله عليه وآله) كلّ ذلك لأنّ النّتيجة كانت أهم من المقدمة لأنّ هذا الجيش الفاتح كان يسير لأجل أن يغير وجه الدّنيا ويخرج أهلها من الظّلمات إلى النّور فما قيمة تلف مزرعة

(١) من حياة أهل البيت، التّسخيري ص٢١.
(٢) كتاب صفين ٢٧- ٢٨، لنصر بن مزاحم.
(٣) ن.م ص٢٨.
(٤) نهج البلاغة، ج١، ص٥٩، وشرح النّهج، ج ص٢٦٩- ٢٧٠.
(٥) نهج البلاغة، ج١، ص٥٩، وشرح النّهج، ج ص٢٦٩- ٢٧٠.
(٦) نهج البلاغة، ج١، ص٢١٧، ثورة الحسين، شمس الدّين ص٥٤.

صغيرة إذا كان الجيش الإسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الإسلامي العادل في توزيع الثّروات في العالم على الخط الطّويل وهذا أمر معقول من النّاحية الفقهية لأنّ القاعدة تقرر بأنّ الواجب إذا توقف على مقدمة محرمة وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك الحرمة فلا بد من تقديم الواجب على الحرام.

لماذا لم يطبق الإمام (عليه السلام) هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السّياسية:

ومن هنا يقرر المعارضون لسياسة الإمام (عليه السلام) لو أنّ علياً استفاد من تطبيق هذه القاعدة الفقهية واتجهت جهوده إلى الواجب الأكبر في تملك زمام قيادة المجتمع الإسلامي والعمل على إحراز المكاسب الإسلامية الكبيرة من خلالها ولا بأس أن تبقى بعض المحرمات في سبيل الحفاظ على الواجب الأكبر مادامت مبرراتها الشّرعية الفقهية موجودة، ولاسيّما تملك الإمام (عليه السلام) لزمام القيادة سوف يفتح على المسلمين أبواب الخير والسّعادة ويقيم فيهم حكومة الله على الأرض.

فالسّؤال بشكل أدق هو لماذا يتوجه الإمام (عليه السلام) إلى تحقيق الهدف الأكبر ويترك لمعاوية ولاية الشّام ولو إلى حين ويصرف نظره عن الأموال المسروقة الّتي نهبها بنو أمية من بيت مال المسلمين مؤقتاً ولماذا لا يكون عمله هذا تطبيقاً حياً لمفهوم التّزاحم الّذي تكلمنا عنه، وذلك بتقديم الأهم على المهم كما يريد هؤلاء؟! حيث صرحوا للإمام في معرض إقناعه بضرورة المساومة من أنّ بقاء معاوية وإن كان له ضرر وخطره على الأمة الإسلامية إلا أنّ بقاء وديمومة دولة الإمام (عليه السلام) وانتشار نفوذه وفرصة بناء القاعدة الشّعبية لحكم الإمام (عليه السلام) وإجلاء الأطروحة الإسلامية الصّحيحة مما علق بها من المسخ والتّشويه وتأكيد معالمها في الحياة الاجتماعية بالإضافة للجوانب الحياتية الأخرى وبعد أن يتمكن من كلّ هذا ويتقوى على عدوه فإنّه (عليه السلام) يبادر حينذاك بتصفية البؤر المضادة لحكمه واحداً بعد الآخر ومن موقع القوة.

فهؤلاء المعترضون تصوروا قيام «تزاحم» بين أهم ومهم فجاء اقتراحهم هذا لإبقاء معاوية على ولاية الشّام لكي تبقى دولة الإمام (عليه السلام) ومن ثمّ التّحرك على الفتنة والقضاء عليها، ونحاول الإجابة على كلّ هذه التّساؤلات ونقول بأنّ القاعدة الفقهية الّتي تحدثنا عنها سابقاً ليست صالحة للإطباق على مواقف الإمام (عليه السلام) ولم يكن الإمام كقائد رسالي يمثل الإسلام وأهدافه وأن يقبل هذه المساومات وأنصاف الحلول وذلك لملاحظة النّقاط التّالية وأخذها بنظر الاعتبار.

النّقطة الأولى: كانت من أهم أهداف الإمام (عليه السلام) الّتي رسمها منهجاً لسلوكه السّياسي: هو توطيد وترسيخ قاعدة حكمه في قطر من أقطار العالم الإسلامي، ألا وهو العراق وذلك لوجود الأتباع والقواعد الشّعبية الموالية لحكمه روحياً وعاطفياً وإن كان العراقيون لا يعون رسالته وعياً حقيقياً كاملاً، ولهذا كان الإمام (عليه السلام) بحاجة ملحة لبناء طليعة واعية في دولته الجديدة الّتي كان يخطط لإنشائها في العراق تلك الطّليعة الواعية الّتي تكون أمينة على الرّسالة وأهدافها، وساعداً ومنطلقاً له على ترسيخ هذه الأهداف في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، فالإمام (عليه السلام) منذ تسلمه للحكم كان يشعر بوجوب بناء هذه الكوادر الطّليعية المؤمنة والّتي سوف تشرف على القاعدة الشّعبية والّتي ستكون سنده في تسيير الحكم، فالإمام (عليه السلام) لم يكن يملك هذه الطّليعة الواعية بل كان بحاجة إلى أن يبنيها.

وكيف تواتيه فرصة البناء العقائدي وهو في جو ملبد من المساومات وأنصاف الحلول حتّى ولو كانت المساومة جائزة شرعاً ومستوفية لشروط قانون التّزاحم الفقهي وذلك لأنّ التّربية الرّوحية والفكرية والعاطفية الّتي استهدفها الإمام (عليه السلام) في طليعته الواعية لا يمكن أن تنمو بذورها في أوساط قواعده الشّعبية والإمام (عليه السلام) يعيش جو المساومات وأنصاف الحلول، فالإمام (عليه السلام) يشعر شعوراً قوياً وملحاً بأنّ دولته والأمة من بعد دولته لا بد لهما من طليعة وقاعدة واعية تعتمد في حمل الأهداف الرّسالية وترسيخها في واقع الأمة وإرجاء عالمها المترامي، كانت هذه القاعدة الواعية قدرة في ممارسة الحكم الإسلامي الصّحيح وهذه القاعدة الشّعبية الواعية لم تكن جاهزة عند استلامه الحكم حتّى يستطيع الاتفاق معها أو يقنعها بوجهة نظره في المساومات وتبرير ضرورتها الاستثنائية بل أنّ الظّروف وملابسات الواقع آنذاك تطلبت منه بذل كلّ الجهود لبناء جيش عقائدي واعٍ بروحه وفكره وعاطفته أمثال عمار بن ياسر وأبي ذرّ ومالك الأشتر وغيرهم من طليعة الإمام الواعية.

فبناء هذه الطّليعة وتلك القاعدة ليس سهلاً ولا ممكناً لو أنّ الإمام (عليه السلام) اتجه لسلوك سبيل المساومات وأنصاف الحلول فهي تناقض عمله التّربوي في بناء الجيش العقائدي الواعي فافتقاده (عليه السلام) لهذا الجيش معناه فقدانه القوة الحقيقية الّتي يعتمدها في بناء الدّولة الإسلامية ومن هنا كانت قناعة الإمام (عليه السلام) وحرصه على أن يحتفظ بطهر وصفاء عملية التّربية في بناء جيشه العقائدي الواعي فجاءت ممارساته إيحاءات تربوية تغييرية يكون فيها القدوة تتعلم فيها القواعد وتتزود بها الطّليعة الواعية فكان عليه أن يظهر أمامهم قائداً لا تزعزعه المغريات ولا يتنازل لأي نوع من المساومات حتّى يعين (عليه السلام) تلك الطّلائع من خلال هذه المواقف الثّابتة أن يبنوا المدلول الرّسالي لأطروحته بأبعادها الواسعة للحياة، ومن هنا

نفهم موقف الإمام (عليه السلام) في رفضه لكلّ المساومات والحلول الوسط من أجل إتمام هدفه في بناء جيش عقائدي وخلق جو نفسي وفكري وعاطفي ليكون ذلك الجيل مواكباً للأهداف العظيمة في حياته وبعد مماته.

وكان يعني قبول الإمام (عليه السلام) لأي شكل من أشكال التّنازل معناه فشله في تربية الفئة الواعية المدركة لمبادئها وأهدافها وضياع لأهم ضمان للنجاح وهو اطمئنان أصحابه وقواعدهم بقائدهم والشّعور بالثّقة الكاملة وإخلاصه، ولا يمكن أن يتصور هؤلاء إمامهم (عليه السلام) الّذي قال بحث معاوية وأمثاله من بني أمية: ألا وإنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنّها عمياء مظلمة عمت خطتها بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمي عنها ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يرى ويصف رايتهم بأنها:

راية ضلال، قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج من الملة قائم على الظّلة[1]، وأنّهم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام[2]، ومن هنا نخلص إلى نتيجة: إنّ جو المساومة لا يخلق الجو الرّفيع نفسياً وفكرياً وروحياً ولا يتلاءم مع خطط التّربوية في بناء جيل عقائدي واعي.

النّقطة الثّانية: إنّ استلام الإمام (عليه السلام) للحكم جاء أعقاب الثّورة على خليفة المسلمين عثمان أي على أثر ارتفاع وانفجار العواطف الّتي وصلت ذروتها في مقتل عثمان والإطاحة بحكمه لانحرافه عن كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) حيث أنّ مجيء الإمام (عليه السلام) لم يكن مجيئاً عادياً، يقول الإمام (عليه السلام) بهذا الصدد: فأقبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون: البيعة البيعة قبضت كفي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها[3]، بل جاء في لحظة الثّورة وهي تركيز وتعبئة وتجميع كلّ الطّاقات العاطفية والنّفسية في الأمة الإسلامية فكان لا بد للإمام (عليه السلام) أن يغتنم هذه اللحظة المليئة بكلّ ما استنبطته من زخم وطاقات عاطفية ونفسية وفكرية وماذا ينتظر القائد الرّسالي غير لحظة ارتفاع في حياة الأمة لكي يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة إلى مسيرها الطّبيعي وقد كان لهذه السّرعة في تطبيق الإصلاحات الجذرية أثرها المزدوج في الوصول نحو الهدف فهو من جهة: يستفيد من الطّاقات المتأججة فعلاً والّتي تسترخص البذل في سبيل تحقيق النّتيجة ومن جهة أخرى كان يشارك في إبقاء الجذوة متقدة لفترة أطول مما يساعد على إمكانية التّقدم بعملية الإصلاح وترسيخها في المجتمع وهذه السّرعة بالتّالي ستفاجئ القوى المنحرفة فلا تدع لها مجالاً للتخطيط والمؤامرة[4].

النّقطة الثّالثة: أراد الإمام (عليه السلام) أن تدرك الأمة آنذاك وتتفهم بأنّ واقع المعركة بينه وبين خصومه ليست معركة ذاتية بينه وبين معاوية أو بين قبيلتين «بني هاشم وبني أمية»، وإنما هي معركة الإسلام مع الجاهلية، وقد حرص (عليه السلام) كلّ الحرص في توعية النّاس بأنّ واقع المعركة هي عين معركة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع الجاهلية الّتي حاربته في بدر وأحد، والإمام علي (عليه السلام) كانت مهمته الرّسالية الكبرى، هي أن يحافظ على وجود الأمة دون أن تتنازل الأمة الإسلامية عن كيانها وكرامتها ووجودها، ولا يمكن تفسير عمل الإمام (عليه السلام) إلا أنّه راض وقابل بمواكبة المؤامرة ولا يمكن أن نفترض بأنّ للإمام أن يساهم في هذه المؤامرة ولو أنّ الإمام هادن معاوية، فإنّ موقفه المساوم هذا يعني أمرين: الأوّل: منح معاوية فرصة ثمينة ليحكم قبضته ويستفيد من الموقف ويكسب الشّرعية وهذا يعني في إدراك الإمام (عليه السلام) التّفريط في مستقبل الأمة ولمستقبل تجربتها الإسلامية ككلّ وهذا يعني أن تباع الأمة بعقد يقبل الفسخ لأناس أرادوا أن يبيعوها بعقد لا يقبل الفسخ، والثّاني: تفاقم ظاهرة الشّك «المصطنع» وفقدان الثّقة بالقائد وشرط الثّقة بالقائد من الشّروط المهمة لحصول التّأثير المطلوب في الأمة وكان الإمام (عليه السلام) يمثل رمز القيادة الواعية الّتي تريد أن تربي الأمة على المدى الطّويل، فإن وجدته الأمة وهو يساوم عليها ويبيعها لحكام ظلمة فقدت بالضّرورة ثقتها وولاءها به، ومن الملاحظ -تاريخياً- في أواخر حياته (عليه السلام) أنّ روح الشّك قد سرت في بعض قطاعات الأمة «الشّك في واقع معركته مع معاوية» رغم أنّ عوامل ذلك الشّك كانت عوامل تبريرية ذاتية لكن دون أن يكون لها مبرر موضوعي خارجي، ولهذا كان تصميم الإمام (عليه السلام) على أن يجابه المؤامرة ويفضحها قبل أن تتجذر في واقع الأمة فأعلن الحرب دون هوادة على كلّ هذه البؤر بعد أن أعلن لمن طلبوا منه قبول أنصاف الحلول أنّه قد قلب هذا الأمر ظهره وبطنه فلم يجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمّد (صلى الله عليه وآله)[5].

النّقطة الرّابعة: لم يركز الإمام (عليه السلام) في طريقة تعامله مع مشكلة الانحراف وإيجاد حل لها بالفترة الزّمنية القصيرة الّتي عاشها فقط وإنما كان يحمل طموحاً وهدفاً أكبر من ذلك، كان يتعامل مع التّاريخ أكثر مما كان يتعامل مع فترة حكمه القصيرة

(١) نفس المصدر السّابق، ص١٥٦.

(٢) نفس المصدر السّابق، ص٢٢٤.

(٣) نهج البلاغة رقم النّص: ١٣٧.

(٤) من حياة أهل البيت، التّسخيري ص٧٧.

(٥) صفين، ص٤٧٤.

فقدم منهجه للتأريخ فخلده التاريخ كأعظم إنسان بعد النّبي (صلى الله عليه وآله) وأكمل خطاه وسار على منهجه أروع سيرة فكان إسلاماً مجسداً حقاً، الإمام علي (عليه السلام) كان قد وعى مشكلته آنذاك بأنّه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه حيث لا ينفع العلاج، هذه الحقيقة الجلية، دفعت إمامنا (عليه السلام) أن يفكر بأشواط أطول وأوسع لخوض معركته الرّسالية ولم يدر في خلده يوماً أن يركز على الفترة الزّمنية القصيرة من سني حكمه الّتي عاشها بل كان يتلخص إيمانه بأنّ الإسلام بحاجة إلى أن تقدم له في خضم تعقيدات الانحراف أطروحة واضحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض ولا التواء ولا تعقيد ولا مساومة فيها ولا نفاق.

وهذه الأمة الّتي هي أشرف أمم الأرض برسالتها لا يمكن لها أن تحفظ هذه العلاقة بينها وبين الإسلام على أساس معطيات «إسلام السّقيفة» الّذي أنتج للأمة الإسلامية قادة منحرفين أمثال معاوية بن أبي سفيان ويزيد وعبد الملك بن مروان وهارون الرّشيد ولكي تحفظ هذه الصلّة بين الأمة ورسالتها العظيمة لا بد من إعطاء صورة واضحة محددة الإسلام وهذه الصّورة:

أعطيت نظرياً: على مستوى ثقافة أهل البيت (عليهم السلام).

أعطيت عملياً: على مستوى تجربة حكم الإمام علي (عليه السلام).

ولهذا كان الإمام (عليه السلام) يستغل كلّ الفرص ليعمل على تعميق وعي الإسلام في الأمة ويربي الطّليعة المؤمنة الّتي تشكل على المدى الطّويل الرّابط الحقيقي بين الإسلام والأمة وليضع المنهج الّذي يبقى في وعي الأمة منهجاً إسلامياً حقاً وتبقى تقارن بينه وبين منهج أي حكم يأتي من بعده فتعيدها هذه المقارنة إلى صحتها وتبرق في ضميرها بوارق العودة إلى الإسلام من جديد[1].

ومن هنا جاء تأكيد الإمام (عليه السلام) على العناوين الأولية في التّشريع الإسلامي وعلى خطوطه الرّئيسية لكي يقوم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوث بلوثة الانحراف الّتي كتبت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزّمن وقد استمر الإمام (عليه السلام) في صموده ومواجهته لكلّ المؤامرات الّتي ساهمت في صنعها الأمة -المضللة الغافلة- على أساس جهلها وعدم وعيها وإدراكها وشعورها بالدّور الحقيقي الّذي يمارسه الإمام (عليه السلام) في سبيل حماية وجودها من الضّياع وحماية كرامتها من أن تتحول إلى سلعة تباع وتشترى، ولهذا كان يحرص الإمام (عليه السلام) كلّ الحرص على طرح الصّيغة الإسلامية الكاملة للحياة والوقوف على التّكليف الواقعي دون القفز عليه أو تجاوزه إلى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظّروف

(١) التّسخيري، من حياة أهل البيت، ص١٣٣.

المعقدة[2]، ولو أنّ الإمام (عليه السلام) كان قد مارس قبول أنصاف الحلول وباع الأمة عن إرادتها مع خيار الفسخ إذن لكان بها قد اشترك في إنجاح هذه المؤامرة وسلخ الأمة عن إرادتها وشخصيتها وكانت الأمة آنذاك بحاجة كبيرة لكي تستطيع أن تكون على مستوى المسؤولية والمقدرة لكي تتخلص من تبعات هذه المؤامرة، فكان لا بد لها أن تشعر بكرامتها وإرادتها وحريتها وأصالتها وهي تعيش الصّراع مع الجاهلية، وهذا كلّه مما لا يتفق مع ممارسة الإمام (عليه السلام) لأنصاف الحلول.

النّقطة الخامسة: تحدثنا الرّوايات التّاريخية، بما لا مزيد عليه، عن صور وألوان مخزية من الانحرافات والفساد بكلّ معنى الكلمة فقد كان وضعاً يشهد سباقاً إلى اللهو والمجون والفجور، ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السّابقة في الدّين والجهاد في الإسلام، وإنما كانوا متّهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق، ورقة الدّين معروف مشهور: كان فيهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الّذي بالغ في إيذاء النّبي (صلى الله عليه وآله) والسّخرية منه وبالغ في الهزء بالقرآن حتّى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن أمرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه[3]، أما سعيد بن العاص الّذي خلف الوليد فقد استقبله الكوفيون بالكراهية وعدم الرّضا لأنّه كان شاباً مترفاً لا يتحرج من الإثم ولا يتورع من الإفك.

روى ابن سعد: أن قال مرة في رمضان بعد أن ولي المصر: من رأى منكم الهلال؟ فقال له هاشم بن عتبة الصّحابي العظيم: أنا رأيته وأصبح هاشم داره مفطراً عملاً بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، وفطر النّاس لإفطاره وبلغ ذلك سعيداً فأرسل إليه وضربه وحرق داره[4].

وكذلك عبد الله بن عامر بن كريز، إذ ولي البصرة وهو ابن أربع وعشرين سنة وقد سار سيرة البذخ والتّرف، وقد قام مقتل عثمان بنهب ما في بيت مال المسلمين في البصرة وسار إلى مكة وانضم إلى المتمردين على الإمام علي (عليه السلام)[5]، وناهيك عن الحديث عن معاوية وترفه فإذا كان ولاة الأمصار الهامة هم بهذه المنزلة فماذا نتوقع من الجهاز الإداري الأصغر من هؤلاء والّذي كان يضج بالتّرف والفساد[6].

من خلال هذه الحقيقة، نفترض ونقول: لو أنّ الإمام علي (عليه السلام) كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة، بكلّ فسقها

(٢) نفس المصدر، ص١٤٦.

(٣) عن ثورة الحسين، شمس الدّين، ص٣٨.

(٤) عن كتاب حياة الإمام الحسن، ص٢٦٣.

(٥) أسد الغابة ج٣، ص٢٦٣.

(٦) راجع للاستفسار من حياة أهل البيت(عليهم السلام)، التّسخيري، ص١٤٣.

وفجورها، فليس من المعقول -بمقتض طبيعة الأشياء- أن يتمكن الإمام (ع) من ممارسة عملية التّغيير الحقيقي في تجربته السّياسية الّتي يتزعم قيادتها.

والحقيقة هي: إنّ أي موقف رسالي يستهدف تغييراً جذرياً وإصلاحاً حقيقياً في بيئة أو أي مجتمع من المجتمعات تشمله هذه الحقيقة المطلقة وهي إنّ كلّ إصلاح وتغيير، لا يمكن أن ينشأ أو أن ينبثق من خلال الأوضاع والأجهزة الفاسدة نفسها، بل لا بد من نسف وإزالة هذه الأوضاع ومؤسساتها المعطلة لمهمة التّغيير والإصلاح، إنّ القائد يستمد قوته وقدرته من أسباب النّصر الطّبيعية أي من تلك الرّكائز نفسها، بعد أن تتعمق وتنمو هذه القدرات عنده باستمرار، من خلال أجهزته ومؤسساته الّتي هي قوته التّنفيذية، والّتي هي واجهته وتعبيره وتخطيطه إلى الأمة.

النّقطة السّادسة: إنّ الإمام (ع) لو كان قد أمضى ولو مؤقتاً الأجهزة الفاسدة الّتي خلفها عثمان بن عفان وعلى رأسها، إقصاء حاكمية معاوية بن أبي سفيان وبتعبير آخر لو باع الإمام (ع) الأمة لمعاوية بيعاً مرحلياً مؤقتاً مع خيار الفسخ لحصل كلّ ما في الأمر على نقطة قوة مؤقتة وفقاً للنصائح الّتي أسديت للإمام في هذا المجال ونقطة القوة هنا هي أنّ معاوية سوف يبايعه ومعه أهل الشّام هذه القوة الّتي سيكسبها الإمام (ع) في حساب عملية التّغيير تقابلها نقطة قوة سوف يحصل عليها معاوية ألا وهو اعتراف الإمام (ع) بشرعية معاوية في الحكم وبأنّ معاوية رجل على أقل تقدير سيوصف بأنّه عامل قدير على تسيير مهام الدّولة وحماية مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم.

فهناك إذن اعتراف من قبل الإمام (ع) يعطي نقطة قوة لمعاوية في مقابلها نقطة قوة يأخذها الإمام عن طريق الإمضاء المؤقت لولاية معاوية ورضوخه لسلطان الإمام الشّكلي وتحييده من مخالفته للإسلام والإمام وهذا الإمضاء المؤقت سيتيح للإمام الفرصة للقضاء على أعدائه بالتّدريج وتصفية بؤرهم وتنفيذ أطروحته في نهاية الأمر، ولا يعني هذا أنّ معاوية عندما يبايع أو يأخذ البيعة لخليفة في المدينة أنّ جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشّام وأنّ هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشّام وبين الحكومة المركزية وإنما يبقى بعد أخذ البيعة أيضاً هذا الوالي همزة الوصل الحقيقية والفعالة بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية.

فضعف الحكومة المركزية من ناحية وترسخ معاوية وقدم ولايته في الشّام من ناحية أخرى وخصوصاً أنّ الشّاميين لم يعرفوا حاكماً مسلماً قبل معاوية وأخيه يزيد منذ دشن الشّام حياته الإسلامية الاستثنائية والّتي أعطيت له من قبل عمر بن الخطاب وأعطيت معه له الصّلاحيات الاستثنائية في أن ينشىء له سلطنة وملكية في الشّام بدعوى أنّ هذه السّلطنة ستكون مظهر عز وجلال للإسلام في مقابل دولة القياصرة.

بينما الإمام (ع) إذا أراد بعد هذا الموقف أن يعزل معاوية من ولاية الشّام كان باستطاعة معاوية أن يثير في وجه الإمام (ع) بالإضافة إلى جانب وجوده المادي المترسخ منذ زمن طويل في الشّام الشّبهات على المستوى التّشريعي والإسلامي متسائلاً أمام النّاس، لماذا يعزلني الإمام علي؟! وخصوصاً بعد أن اعترف بأنّي حاكم كفوء صالح لإدارة شؤون المسلمين؟!

مثل هذه الأسئلة كان بإمكان معاوية أن يلقيها في وجه الإمام (ع) ولم يكن للإمام (ع) أي جواب مقنع يتقدم به أمام الرّأي العام الإسلامي بينما لو بادر الإمام (ع) منذ البداية بعزله وتنحيته وعلى أساس أنّه يؤمن بعدم صلاحيته وبأنّه شخص لا تتوفر فيه شروط الحاكم الإسلامي ولأنّه والي منحرف وهو بريء ولا يتحمل مسؤولية وجود معاوية كحاكم في الفترة السّابقة أثناء خلافة عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان لكان جوابه مقنعاً أمام الرّأي العام الإسلامي!

النّقطة السّابعة: وهنا نفترض أنّ الإمام علياً (ع) لو كان قد أمضى حاكمية وولاية معاوية بن أبي سفيان لبايعه ولمنح الإمام (ع) نقطة القوة، ولكن كلّ المؤشرات والقرائن الّتي كانت تكتنف موقف الإمام (ع) تنبئ عن أنّه لم يكن ليبايع الإمام (ع) لو أبقاه في ولاية الحكم وكلّ الملابسات التّاريخية كانت لا توحي بصحة هذا الافتراض القائل بأنّ إمضاء حاكمية معاوية كأسلوب وكمرحلة يعني أنّ معاوية سوف يمضي خلافة الإمام (ع) ويعطيه البيعة فأنّ معاوية لم يعص الإمام (ع) لأنّ الأخير عزله عن الولاية وإنما كان ذلك -في أكبر الظّن- جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد «للأموية» الحاقدة على الإسلام الأموية الّتي كانت تخطط لنهب مكاسب الإسلام بالتّدريج فمعاوية كان عارفاً بالمعادلة القائمة حينئذ، ومدركاً أنّ الفرصة الآن هي أسنح له من أي وقت آخر وكان يعلم أنّ الإمام إذا هادنه فإنما ذلك لضرورة استثنائية ولا بد أنّ الإمام سينهي هذه الهدنة عندما يتمكن منه وسيعمل لتصفيته وإفناء قواعده لأنّه يعرف الإمام جيداً وقد خبره في كثير من المواقف الحاسمة ويعي مدى نظره وإخلاصه، وكانت تصريحات معاوية وتصرفاته كلّها توحي بأنّه لم يكن ليبايع للإمام (ع) وكان يطالب بدم عثمان وقتل قتلته ويتهم أكثر أصحاب الإمام (ع) وقادته بذلك.

وكان يوهم العامة من النّاس أنّ المقام الّذي يمتلكه إنما هو حق طبيعي وكرامة إلهية من الله بها عليه.

فهو يقول في خطبة له بحضور مندوب الإمام (عليه السلام) الّذي جاء ليأخذ البيعة: غير أنّ الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جاب الصدّى وسقط النّدى وعرف الهدى حملهم على خلافنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم ثم يمضي يقول: أيها النّاس إنّي خليفة أمير المؤمنين عمرو بن الخطاب وإنّي خليفة عثمان بن عفان عليكم[1]، وقتل مظلوماً وتعلمون إنّي وليه[2].

وهو بهذا يمهد ليعلن نفسه خليفة للمسلمين بعد أن جعل نفسه امتداداً للخلافة وكانت أطماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على أحد ولم يكن الجيش الّذي أعده وهيأه إلا ليحارب من يتولى الخلافة كائناً من كان لقد كان يضلل بدعوته إلى إعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد أن يقتص من قتلة عثمان.

وكتب للإمام (عليه السلام) يقول:

وقد أبى النّاس إلا قتالك حتّى تدفع لهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين وإنما كان الحجازيون هم الحكام على النّاس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على النّاس أهل الشّام[3]، وهكذا قدر للمؤامرة «الأموية» أن تنفذ على مراحل كانت المرحلة الأولى منها هو ترسيخ وجود الأخوين في الشّام يزيد بن أبي سفيان ومن بعده أخيه ومن ثمّ استقطاب أهل الشّام عن طريق معاوية بتكريس بقائه هذه المدة الطّويلة، لقد كان معاوية يتحين الفرص لمقتل الخليفة عثمان لأنّ مقتله سيمكنه من سلاح غير منظور يستطيع به الدّخول إلى ميدان الصّراع مع الإمام (عليه السلام) وعين هذه الحقيقة تفسر تباطؤه عن نصرة عثمان وبعد أن استنصره واستصرخه وكتب له مبيناً بأنّه يعيش لحظات الخطر الأخيرة

ولكن معاوية يجيبه وكان معاوية -على أقل تقدير- قادراً أن يؤخر هذا المصير المحتوم «بخليفة عثمان» إلى مدة أطول لو أنه بادر لنصرته ولكن معاوية بالعكس كان يخطط لأن يبقى هذا التّيار الثّوري ليمهد لسقوط عثمان على يد الثّوار المسلمين قتيلاً وبعدها يأتي ويطالب مدعياً بأنّه ابن عمّ الخليفة المقتول وولي دمه[4].

ومن المعلوم أنّ معاوية لم تكن تتاح له هذه الفرصة الثّمينة كلّ يوم فهي فرصة تلبي الآمال والأطماع الأموية الّتي كان يحلم بها منذ أن دخل الإسلام معترك الحياة وذلك لكي ينهب مكاسبه ومنجزاته، هذه الفرصة الذّهبية لم يكن من المضنون إنّ معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشّام بل أنّ ولاية الشّام كانت مرحلة في تزعم ونهب كلّ

(١) صفين، لنصر بن مزاحم ج١، ص٣٢.

(٢) ن. م ص٨١.

(٣) نقلاً عن سيرة الأئمّة الاثني عشر ج١، ص٤٦٨.

(٤) صفين نصر بن مزاحم ج ٨١.

الوجود الإسلامي وتجيره لأطماع بني أمية، وهذا يعني أنّ تعيين وإبقاء معاوية والياً على الشّام سوف لن يكون على مستوى أطماعه في المرحلة الأولى والّتي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

نستنتج مما سبق أنّ فرضية ركون معاوية إلى البيعة لو أقره الإمام (عليه السلام) افتراض غير منطقي لا ينسجم مع طبيعة الأحداث والأشياء.. أمّا أسلوب المساومة وقبول أنصاف الحلول فلم تكن إلا أسلوباً من أساليب معاوية لكسب الوقت واتخاذ جانب المظلوم ورفع شعاره لإغراء النّاس به، ويمكن أن نشير إلى كثير من الخسائر الّتي يمكن أن تمنى بها حركة الإمام (عليه السلام) وذلك بقبوله للمساومات.

الخسائر المتوقعة

١- إمضاء الظّلم واتخاذ المضلين عضداً، وإمضاء الأطروحة الأموية اللاإسلامية.

٢- إضاعة فرصة التّربية القيادية وذلك عن طريق لعب أوراق أنصاف الحلول والمساومات.

٣- إضاعة الفرصة المؤاتية للقضاء على ألد أعداء الإسلام وذلك بالتّفريط بحالة الصّحوة الثّورية للجماهير الإسلامية عقيب مقتل عثمان.

٤- إنّ مواقف المساومة وأنصاف الحلول تؤدي إلى غياب وفقدان الرّؤية الواضحة للأطروحة الصّحيحة الّتي ينشدها الإمام (عليه السلام) لأمته الّتي ابتليت بها وغير ذلك من الخسائر والمضار الّتي اعتبرها الإمام (عليه السلام) الكفر بعينه[5].

النّقطة الثّامنة: الوضع الّذي كان يعيشه الإمام (عليه السلام) مع ملاحظة طبيعة الأمة في ذلك الوضع لم يكن يوحي بالاعتقاد بأنّ الإمام عاجز عن إمكان تحقيق النّجاح في عمليته التّغييرية دون اللجوء إلى حل وسط لأنّ المفهوم الفقهي «لقانون التّزاحم» إنما يتحقق فيما إذا كان هناك توقف بالفعل وهو توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة فإذا توقف هذا الواجب الأهم وتأكد أنّه لا يمكن التّوصل إليه إلا عن طريق هذه المقدمة المحرمة ولأنّ كلّ الظّروف آنذاك لم تكن توحي أو تؤدي إلى اليقين بمثل هذا التّوقف وذلك لأنّ المؤامرة الّتي اضطلع بمسؤولية إحباطها الإمام (عليه السلام) لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الأمة في يوم قريب سابق عن يوم مصرع عثمان كانت قد عبرت تعبيراً معاكساً ومضاداً لواقع هذه المؤامرة ولمضمونها.

صحيح أنّ المؤامرة على وجود الأمة وأصالتها تمتد جذورها تاريخياً إلى أمد طويل إلى أيّام الجاهلية ولكن الأمة

(٥) التّسخيري، من حياة أهل البيت، ص١٦٢- ١٦٣.

الّتي سهر الرّسول (ص) لكي يمنحها أصالتها وكرامتها وشخصيتها ووجودها الحضاري نرى حتّى أنّ الرّسول (ص) نفسه ألزم نفسه وقد ألزمه ربه في الكتاب الكريم بضرورة التّشاور مع المسلمين وذلك من أجل تربيتهم نفسياً وإعدادهم لتحمل مسؤولياتهم وإشعارهم بأنّها الأمة الجديرة بتحمل مسؤوليات هذه الرّسالة العظيمة الّتي أنزلت رحمة للعالمين، ولكن المؤامرة بدأ مخططوها يعملون بالتّدريج للقضاء على وجود الأمة وأصالتها وتحويل وجودها إلى سلطنة وملك عضوض، حيث تمت مصادرة الوجود الإسلامي الأصيل للأمة وأعطي هذا الوجود للحاكم والسّلطان، هذا البديل لم يبرزه عمر في زمانه بل أسرها في نفسه ولكنه عبر عن هذا البديل بكلّ صراحة حينما اغتيل وحينما طلب منه حاشيته المتملقون أن يوصي بعده وألا يهمل أمة محمّد (ص) بدون تعيين وقد قال عمر حين طلب منه النّاس الاستخلاف:

لو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه، لوثقت به سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة الجراح ولو كان حياً ما جعلتها شورى[1]، إذن من هذا النّص إنّ الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشّورى، ولذا إنّ عمر يسند الأمر إلى ستة أشخاص ويوكل أمر التّعيين إلى السّتة أنفسهم دون أن يجعل لسائر المسلمين أي دور حقيقي في الانتخاب والخليفة عمر بعمله هذا كان متحفظاً لأنّه لم يعين واحداً وإنما وضعها في ستة أنفار.

هذه الادعاءات كانت تقال خارج نطاق دستور الدّولة.. أمّا في نطاق الدّستور كانت لا تزال الصّيغة الإسلامية الصّيغة المعتمدة الّتي تنص على: إنّ المال مال الله والنّاس سواسية والمسلمون كلّهم عبيد الله لا فرق بين قرشيهم وعربيهم وأعجميهم أو بين مسلم وآخر، هذه الصّيغة الدّستورية استمرت حتّى في عهد عثمان ولكن ولاته الأمويين بتغطرسهم وعجرفتهم وتهورهم كانوا يترجمون الواقع السّيء وينطقون به والواقع هو غير الدّستور المكتوب الّذي يعترف نظرياً بأنّ الأمة هي صاحبة الرّأي وسيدة الموقف وإنّ أرض السّواد هي ملك لها، هكذا كان الأمر، وهذا يعني أنّ عناصر المؤامرة المخطط لها لم تستكمل شروط نجاحها بعد، بالرّغم من كلّ هذه المقدمات والإرهاصات النّظرية والعملية، فالظّروف والملابسات الّتي أحاطت بالأمّة آنذاك، لم تكن لتؤدي إلى يأس بل كانت تؤدي إلى أمل بقهر الانحراف، وما حدث من خلال سني حكم الإمام (ع) الأربعة كان يؤكد هذا الأمل، فالإمام (ع) استطاع أن يسيطر على الموقف بسهولة ولولا مسألة التّحكيم ولولا شعار طرح من قبل معاوية «رفع المصاحف» ينعكس خاطئ لدى جماعة معينة من جيش الإمام (ع) وتُشق صفوفه، بشكل لكان بينه وبين معاوية وتصفيته إلى الأبد بضعة أمتار وقليل من الزّمن.

وبعد أن أدركنا كلّ هذه الحقائق نرى أنّ أمل الأمة واعتقادها في أنّ علياً (ع) يمكنه أن يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها وكرامتها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول يكون أمل الأمة هذا معقولاً وراجحاً، ومن هنا كانت نظرية الإمام (ع) بأنّه لم يكن هناك أي مجوز يقوده لمزالق المساومات وأنصاف الحلول.

وهكذا كان (ع) وظل إمامنا العظيم صامداً مواجهاً لكلّ المؤامرات الّتي كانت الأمة المغفلة تساهم في صنعها وحياكتها على أساس جهلها وعدم وعيها وشعورها بالدّور الحقيقي الّذي يمارسه الإمام (ع) في سبيل حماية وجودها من الضّياع وحفظ كرامتها من أن تتحول إلى سلعة يساوم عليها بالبيع والشّراء، حتى خر صريعاً في مسجده وخاب باستشهاده الأمل الّذي اعتمل في نفوس الواعين وانتهى آخر أمل حقيقي في قهر الانحراف وقدر للمؤامرة أن تنضج وأن تؤتي مفعولها في التّأريخ الإسلامي، وإنّ نجاح المؤامرة في فهم الإمام (ع) لم يكن عني إلقاء السّلاح، بل يتحدث إلى ولديه ليقول لهما: نعم يا ولدي لقد نجحت مؤامرة اغتيالي ولهذا سوف تشردون وتقتلون أنتم وشيعتكم، ولكن هذا يجب أن لا يفت في عضدكم لأنّ المعركة لم تنته بعد يجب أن تقاوم حتّى تقتل مسموماً ويجب أن يقاوم أخوك الحسين حتّى يقتل بالسّيف ولابدّ أن يستمر الخط حتّى بعد أن سرق من الأمة وجودها لأنّ محاولة استرجاع الوجود إذا بقيت حية في أذهان الأمة فسوف يبقى نفس الجهاد فيها، ويبقى هناك ما يحصن الأمة ضد التّميع وفقدان الإرادة لأنّ الأمة حينما تتنازل عن إرادتها وشخصيتها للطاغوت حينئذ تكون عرضة للتميع والذّوبان في أتون هذا الطّاغية وذلك الجبار، ولكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار، فهناك أمل في أن تتمكن الأمة من استرجاع وجودها وعلى أقل تقدير سوف تحقق هذه المحاولة كسباً آنياً باستمرار وهو تحصين الأمة ضد التّميع والذّوبان المطلق في إرادة وإطار الحاكم الطّاغية، وهذا ما وقع لأهل البيت (ع).

وفي نصف القرن الأول بعد وفاة النّبي (ص) كانت القيادة الشّعبية -بعد إقصائها عن الحكم- تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطّرق الّتي تؤمن بها، لأنّها كانت تؤمن بوجود قواعد شعبية واعية أو في طريق التّوعية من المهاجرين والأنصار والتّابعين بإحسان ولكن بعد نصف قرن -وبعد أن لم يبق من هذه القواعد الشّعبية الشّيء المذكور ونشأت أجيال مائعة في ظل الانحراف- لم يعد تسلم الحركة الشّعبية بقيادة أهل البيت (ع)

(١) طبقات ابن سعد: ٢٤٨/٣.

للسّلطة محققاً للهدف الكبير لعدم وجود القواعد الشّعبية المسائدة بوعي وتضحية.

وأمام هذا الواقع كان لابدّ من عملين:

أحدهما: العمل من أجل بناء هذه القواعد الشّعبية الّتي تهيئ أرضية صالحة لتسلم السّلطة.

والآخر: تحويل ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها والاحتفاظ بالضّمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصّلابة تحصن الأمة ضد التّنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين.

والعمل الأوّل: هو الّذي مارسه الأئمة (عليهم السلام) بأنفسهم والعمل الثّاني هو الّذي مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضّمير الإسلامي والإرادة الإسلامية وكان الأئمة (عليهم السلام) يسندون المخلصين منهم[١].

شهادة الإمام علي في الميزان

وباستشهاد الإمام (عليه السلام) قضت قوى الرّدّة على آخر أمل في إعادة خط التّجربة الصّحيحة ذلك الأمل الّذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين متجسداً بإمامهم العظيم (عليه السلام) الّذي عاش منذ اللّحظة الأولى من تسلمه لزمام الخلافة هموم الدّعوة وشارك في بنائها لبنة لبنة وأقام صرحها مع الرّسول (صلى الله عليه وآله) ورافقه معه كلّ مراحل الدّعوة بكلّ مشاكلها وهمومها وآلامها، ولهذا كانت حادثة اغتياله الغادر تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي لقيام مجتمع إسلامي صحيح فقد خر الإمام (عليه السلام) مضرجاً بدماء الشّهادة الطّاهرة وهو في محراب الصّلاة فقال: فزت ورب الكعبة!

لنضع علياً في الميزان وهو في آخر لحظة من لحظات حياته(عليه السلام) حينما صرخ (فُزت وربّ الكعبة).

هل كان (عليه السلام) أسعد إنسان أو كان أتعس إنسان؟

للإجابة على هذا السّؤال، هناك مقياسان في هذا المجال فتارة نقيس الإمام (عليه السلام) بمقياس مادي «دنيوي» صرف وآخر نقيس الإمام بمقياس –قرآني- إلهي.

فلو كان الإمام (عليه السلام) قد عمل للدنيا ولزعامتها الدّنيوية فهو ولا شك أتعس إنسان وليس هناك أتعس حظاً منه لأنّه (عليه السلام) بنى كلّ ما بنى وأقام كل ما أقام من صرح حيث شارك رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بنائها لبنة لبنة ورافقه في كلّ مراحل الدّعوة للإسلام ثمّ يحرم (عليه السلام) من كلّ هذا الجهد والبناء ومن كلّ هذه الصّروح؟ هذا الإسلام الشّامخ العظيم الّذي امتد شرقاً وغرباً بني بدم علي (عليه السلام) وبخفقات قلبه وآلامه لقد كان (عليه السلام) شريك البناء بكلّ محنه وكوارثه ومآسيه.

(١) بحث حول الولاية، الشّهيد الصّدر، ص٩٤- ٩٥.

أي لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء لم يكن علي (عليه السلام) حاضراً فيها وهو القائد الشّجاع الّذي تتجه إليه أنظار المسلمين جميعاً من أجل أن ينقذ عملية البناء ولم لا وهو الإمام الحق الّذي خبرته الجماهير في تضحياته من أجل الإسلام حيث لم يتردد في أن يضع دمه عل كفه في كلّ غزوة ومعركة وكل تصعيد جديد لهذا العمل الإسلامي العظيم، وقد كان لجهاد علي (عليه السلام) الأثر الكبير لقيام دولة مترامية الأطراف، حيث اتسعت دولة الإسلام بسيفه وأرسيت دعائمها بدمه الطّاهر الشّريف.

التّبرك بالإمام علي (عليه السلام) عند المسلمين

عن أبي بصير قال: بينما رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذات يوم جالساً إذ أقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إنّ فيك شبهاً من عيسى بن مريم ولولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النّصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولاً لا تمر بملأ من النّاس إلا أخذوا التّراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة»[٢]، وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: نحن نقول بظهر الكوفة قبر لا يلوذ به ذو عاهة إلا شفاه الله[٣].

التّوسل بالنّبي (صلى الله عليه وآله) والإمام علي (عليه السلام)

روى الشّيخ الكليني قدس: عن سماعة قال: قال لي أبو الحسن (عليه السلام): إذا كان لك حاجة يا سماعة إلى الله جل وعلا فقل: «اللّهم إنّي أسألك بحق محمّد وعلي فإنّ لهما عندك شأناً من الشّأن وقدراً من القدر، فبحق ذلك الشّأن وبحق القدر أن تصلي على محمّد وآل محمّد، وأن تفعل بي كذا وكذا، فإنّه إذا كان يوم القيامة لم يبق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن إلا وهو يحتاج إليهما في ذلك اليوم»[٤].

روى الشّيخ المفيد: ثم ادع فقل: «اللّهم إنّي أسألك بحق محمّد نبيك، وعلي وليك، وبالشّأن والقدر الّذي خصصتهما به دون خلقك أن تصلي عليهما وعلى ذريتهما»[٥]، اللّهم إنّي أسألك بحق محمّد نبيك، ونجيك، وصفوتك، وأمينك، ورسولك إلى خلقك، وبحق أمير المؤمنين، ويعسوب الدّين، وقائد الغر المحجلين، اللّهم إنّي أسألك بحق محمّد وآل محمّد أن تصلي على محمّد وآل محمّد، وأن تلعن من جحد هذا اليوم، وأنكر حرمته[٦].

(٢) الكافي للكليني: ج٨، ص٥٧.
(٣) التّهذيب: ج٦، ص٣٤، ح٧٠.
(٤) الكافي للشّيخ الكليني، ج٢، ص٥٦٢، باب الدّعاء للكرب والهم والحزن ط: طهران –دار الكتب الإسلامية.
(٥) المقنعة للشّيخ المفيد ص٢٠٥ باب صلاة يوم الغدير وأصلها ط: مؤسسة النّشر التّابعة لجماعة المدرسين.
(٦) المصدر نفسه: ص٢٠٦.

الخاتمة

عندما نتحدث عن الإمام علي (عليه السلام) نستنطق المسيرة بصورها المختلفة ومحاورها المتعددة الخط الإسلامي المعتمد على العلم والمعرفة هو الخط الأصيل الّذي يتحرك فيه، الأمر الّذي يجعل المعرفة أمراً حيوياً على مستوى العقيدة في الخط الخاص والعام، ونحن عندما نتحدث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) إنّما نتحدث عن الإسلام برحابته فكراً وبشموليته نهجاً ودرب حياة وحينما ندخل في عالم أئمة أهل البيت يجب أن يكون القرآن الكريم خطاً لنا في البداية والنّهاية وأن يكون الحبيب المصطفى عليه الصّلاة والسّلام وعلى آل بيته الشّريفة وعظمتها والتّجدد والانطلاق فيها عنواناً ثابتاً لنا، وعندما نتحدث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فإننا نتحدث عن قمم الرّوح والفكر والجهاد والانفتاح على الواقع الإسلامي كلّه من موقع الرّيادة والمسؤولية، قصتنا مع أهل البيت قصة رسالة قصة أناس يمثلون كلّ الحقيقة وكلّ الطّهر والنّقاء، والولاية لأهل البيت ليس نبضة قلب وخفقة إحساس، ولكن لا يسعك إلا أن توالي الله فتطيعه وتوالي رسول الله فتتبعه وتوالي أهل البيت فنتحرك مع منهجهم منهج أهل البيت أغنى الواقع الإسلامي وأجاب عن الكثير من الأسئلة الّتي تكون جواباً على أكثر من سؤال وأغنى الواقع الإسلامي برؤية ثاقبة لمحاور العلم والمعرفة كافة. فلذلك عندما نقف مع سيرة الإمام (عليه السلام) وهو حلقة من الحلقات الموصلة إلى خاتم الأئمة الحجة، كما هو عيسى (عليه السلام) الحلقة الموصلة لخاتم النّبيين النّبي الأكرم والرّسول الأعظم محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن خلال دراستنا لحياة الإمام وجدنا أنّ ما له من الصّفات والمعجزات تميزه لنعتبره حقاً نقطة تحول وامتداد المعرفي والحركي للنبوة وليس قيادة الدّولة الإداري للحكم في الأمة فقط بل تمثل الإمامة عند الإمام القيام بالدّور الرّسالي في الدّعوة والتّربية والمواجهة للتحديات الفكرية المضادة وإنّ سيرة الأئمة الأطهار بحاجة إلى دراسة توثيقية تحليلية واسعة لنستوحي منها أكثر من خط فكري وأخلاقي وروحي واجتماعي على مستوى النّظرية من المنهج العام وقد ينفتح الدّارسون، من هذه السّيرة العطرة على الكثير من مفردات الثّقافة الإسلامية لمختلف جوانبها الفقهية وغيرها بضرورة عدم إبعاد منهج أهل البيت عن الثّقافة الّتي فرضتها ذهنية التّخلف.

وختاماً أقول «ضجت إليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل الدّنيا».

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الأندلسي، ابن حيان، تفسير المحيط مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

٣- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم «ت ٥٥٥هـ/٣٦٠م»، الكامل في التّاريخ تعليق عبد الوهاب النّجار المطبعة مؤسسة التّاريخ العربي، بيروت ١٩٨٩م.

٤- الذّهبي، شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان، «ت ٧٤٨هـ»، سير أعلام النّبلاء، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٥- الحاكم النيسابوري، محمّد بن عبد الله «ت ٤٠٥هـ/١٠١٥هـ» المستدرك على الصّحيحين تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م.

٦- الحسيني، المرتضى بن الدّاعي الحسيني «ت ١٠٤٤هـ»، تبصرة العوام في مقالات الأنام مطبعة طهران، قم، ١٣٢٧م.

٧- الخوارزمي، محمّد بن موسى، المناقب، مطبعة دار البلاغ، قدم له سيد محمّد رضى الموسوي.

٨- الصّدوق، أبو جعفر محمّد بن علي، إكمال الدّين وتمام النّعمة، صححه وعلق عليه علي أكبر غفاري، مطبعة مؤسسة النّشر الإسلامي، إيران، ١٤٠٥هـ

وكتاب الخصال مؤسسة الأعلمي - لبنان - بيروت.

٩- الطّبري، محمّد بن جرير، «ت ٣١٠هـ- ٩٢٢م»، تاريخ الطّبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٠- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم الإمامة والسّياسة، مؤسسة الحلبي، القاهرة.

١١- ابن قولويه، الشّيخ جعفر بن قولويه، كامل الزّيارات، باب ٨٨، فصل كربلاء وزيارة الحسين (عليه السلام)، مطبعة دار المرتضى، بيروت.

١٢- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ «ت ٧٧٤هـ»، البداية والنّهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣-الكليني، أبي جعفر بن محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، «ت ٣٢٨هـ»، تصحيح وتحقيق علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلامية، طهران.

١٤- المدرسي، هادي، الإسلام منهج الحياة، مطبعة دار البيان العربي، بيروت، ١٤١٠هـ

١٥- الموسوي، الشّريف الرّضي، نهج البلاغة، مطبعة دار العلوم، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠١٠م لبنان.

١٦- المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، باب مختصر من كلام علي (عليه السلام)، قم- دار سعيد بن جبير، ط١.

وكتاب المقنعة، باب صلاة يوم الغدير، مؤسسة النّشر التّابعة لجماعة المدرسين.

١٧- المجلسي، الشّيخ محمّد باقر الأصفهاني «ت ١١١١هـ»، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمّة الأطهار، مطبعة الأمين، بيروت ٢٠٠٨م.

المجلات:

١- مجلة زهور الجوادين، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٢- مجلة الرّسول الأعظم، محرم الحرام، ١٤٢٩هـ مركز الرّسول الأعظم للدراسات الإسلامية.

٣- من إصدارات العتبة العبّاسية «النّبي الأكرم وأهل البيت في صحيح البخاري»، العدد ٦.